كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة غرداية

مجلة إسهامات للبحوث والدراسات

E-ISSN.2543-3636 / P-ISSN.2543- 3539

http://ishamat.univ-ghardaia.dz/index

عنوان المقال: طاعون 1597-1603م بالمغرب بعيون إنجليزية

Plague of 1597-1603 AD in Morocco by English witnesses

محسن بووشن (المغرب)

mohsine.juba2015@gmail.com

الملخص:

كان المغرب السعدي خلال فترة حكم أحمد المنصور يعيش أزهى فترات هذه الدولة، لكن عندما حل الطاعون بالبلاد سنة 1597م، سبب بها خسائر بشرية وسياسية واقتصادية وخيمة، وقد تنوعت ظروف ظهور ذلك الطاعون بالمغرب، وكانت له تداعيات فادحة. ساهمت العلاقات المغربية-الانجليزية المتميزة في تلك الفترة للإنجليز المقيمين بالمغرب أن يكونوا شاهدين على الأوضاع وتقديم معلومات تفصيلية وهامة عنها، سواء الخسائر البشرية والاقتصادية، أو الإجراءات التي اتخذها السلطان حيال تلك الجائحة التي ألمّت بالبلاد، قبل أن يصبح المولى أحمد المنصور نفسه ضحية لذلك الوباء.

Abstract:

Saadian Morocco was, during the reign of Ahmed Al-Mansour, living the most prosperous period of this state, but when the plague came to the country in 1597 AD, it caused severe human, political and economic losses, and the circumstances of the emergence of that plague varied in

Morocco, and it had fatal repercussions. The distinguished Moroccan-English relations contributed during this period to the British residing in Morocco to be witnesses to the situation and to provide detailed and important information about them, whether human and economic losses, or the measures taken by the Sultan towards that pandemic that afflicted the country, before Mawla Ahmed Al-Mansour himself became a victim of that epidemic.

تقديم:

حكمت الدولة السعدية المغرب الأقصى خلال القرنين 16 و17م، وكان عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي أزهى فترات هذه الدولة، حيث وصل نفوذها إلى بلاد السودان في الجنوب، وامتلأت خزائنها بما حصلت عليه من ذهب السودان ومداخيل تجارة السكر وغيرها، كما أصبحت لها مكانة مهمة بين دول المنطقة ككل، خاصة بعد الانتصار الكبير على البرتغال في معركة وادي المخازن سنة 1578م.

ورغم وجود المغرب السعدي في تلك الفترة بين قوتين عظيمتين، وهما الإمبراطورية العثمانية في الشرق، والإمبراطورية الاسبانية في الشمال، واللتان شكلتا تهديدا متواصلا لوجود الدولة، وعبّرتا غير ما مرة عن أطماعهما في السيطرة على المغرب وإنهاء الحكم السعدي به، لكن السعديين استطاعوا الحفاظ على استقلال البلاد وحمايتها من الوقوع تخت التبعية العثمانية أو الاسبانية، وكانت فترة حكم أحمد المنصور حافلة بنماذج ذلك التدافع والعمل الحثيث والمتواصل لهذا السلطان في تلك الفترة لترسيخ مكانة المغرب كقوة بين الأمم المجاورة، ليمتد نفوذ الدولة في عهده إلى بلاد السودان في الجنوب وتتدفق ثروات تلك الربوع نحو خزائن المنصور الذي لقب بالذهبي، كناية على كميات الذهب الكبيرة التي امتلأت بها خزائنه.

أ- ظروف ظهور الطاعون

لكن نهاية هذا الازدهار والاستقرار لن تأتي من القوى المجاورة، بل أن شخصية تاريخية مألوفة في تاريخ

المغرب الكبير هي التي ستدمر الإمبراطورية السعدية مثل بيت من ورق: إنه الطاعون القادم من إسبانيا ، الذي دمر البلاد انطلاقا من أبريل 1597، والذي انتهى بهزيمة أحمد المنصور في تادلة 24غشت 1603م حيث وافته المنية بذلك العدو الخفي، مبيدا ما لا يقل عن نصف مليون إنسان، ومخلفا آثارا جانبية لا حد لها، خالقا بذلك دمارا وإحساسا بقرب نهاية العالم، يشبه ما حصل بالبرتغال بعد هزيمة معركة وادي المخازن[1].

قال ابن خلدون في مقدمته:" إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول"[2]، ويعتبر الطاعون الذي ضرب المغرب في أواخر عهد أحمد المنصور مثالا واضحا يعزز هذه الفكرة، نظرا للضرر الكبير الذي أحدثه في الدولة، والذي لم تستطع أبدا التعافي منه، سائقا إياها نحو التفتت والانهيار.

لقد حلت سنة 1006هـ/1597م في المغرب، وحل معها طاعون شديد الضراوة، استمر لحوالي اثني عشر سنة، تخللتها بعض فترات التراجع، وخلف خسائر بشرية بأعداد هائلة[3]، ليشكل نقطة تحول في تاريخ المغرب السعدي في نهاية القرن السادس عشر.

تظهر المعطيات أن المدن المغربية كانت أكثر تضررا من الوباء مقارنة بالبوادي، ويرجع ابن خلدون ذلك في الغالب إلى " فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائما، فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة... وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران، ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حين الملكة ورفقها وقلة المغرم... ومن الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات، ويأتي بالهواء الصحيح. ولهذا أيضا فإن الموتان يكون في

[1] Rivet Daniel, **Histoire du Maroc de Moulay Idris à Mohammed VI**, Fayard, France, 2012,pp. 192-193.

[2] ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، تحقيق عبد الله الدرويش، الطبعة الأولى، دار يعرب، دمشق، 2004، ص. 499.

[3] التمنارتي عبد الرحمان، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2،2007،ص. 110.

المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير، كمصر بالمشرق، وفاس بالمغرب.[4]

يقدم هذا التفسير شيئا من الحقيقة المرتبطة بالطاعون الذي عاشه المغرب منذ أواخر القرن السادس عشر، ليمتد لعدة سنوات بعد ذلك، فهو من الأوبئة المعدية التي تنتقل عدواها إلى الإنسان من الفئران والجرذان بواسطة لدغات البراغيث التي تعيش متطفلة على هذه الحيوانات، وأخطر أنواع الطاعون هو التسمي الذي يحمل أعراضا حادة وخطيرة، من انخفاض سريع في ضغط الدم وقيء مفاجئ ونزيف دموي حاد، وتحدث الوفاة به في أقل من ثلاثة أيام بشكل مؤكد[5]، وما قاله ابن خلدون يوضح الظروف التي تعزز من إمكانية تكاثر القوارض والبراغيث وتسهل عملية انتقال العدوى بين الناس.

كما ساهمت بعض الفتاوى الدينية في ذلك الانتشار للعدوى بين الناس، كالتي حرّمت عزل المرضى، بل على العكس من ذلك، حثت على الاستمرار في الاتصال بهم ومخالطتهم، وهو ما قال به الونشريسي مثلا، الذي استشهد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول عن الوباء: "**إنها رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم فلا تتفرقوا عنه**"[6]، واعتبر أن "ما ورد في الشّرع من النهي عن القدوم على موضع الوباء لا يراد به إلا نهي من كان في غير تلك الأرض عن أن يقدم عليها. وأما أهل الموضع نفسه أن يدخل بعضهم على بعض ويمرض بعضهم بعضا فليس في النهي الذي في الحديث في شيء. وكيف يترك فرض افترضه الشارع أو شيء رغب فيه وحض عليه؟ لما ذكر من العدوى وهو أمر موهوم من أمور الغيب التي استأثر الله بعلمها، ولا يلزم وجود ذلك بشخص أن يكون كذلك في حق آخر"[7]، وهو ما يعني أنه حتى المغاربة الذين التزموا بعدم الخروج من المناطق الموبوءة، كانوا يخالطون المرضى، مما يرفع من إمكانية العدوى بشكل كبير جدا بينهم، ويفسر الارتفاع الكبير

[4] ابن خلدون ، مرجع سابق، ص. 500.
[5] البزاز محمد أمين، الطاعون، **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، مطابع سلا، المغرب، 1989، ص. 5679.
[6] الونشريسي أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**،ج 2، خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،1981، ص. 359.
[7] الونشريسي أحمد، مصدر سابق، ص. 358.

لأعداد الذين فتكت بهم تلك الجائحة.

تتضمن المصادر المغربية لتلك الفترة إشارات عديدة لذلك الوباء وشدته، وما تسبب فيه من الوفيات الكثيرة، التي لم تستثن أي فئة من فئات المجتمع المغربي، سواء في المدن أو البوادي:**"و(في سنة ست وألف) كان الوباء بالمغرب إلى أن خرج من فاس ألف ميت كل يوم ورجع بعدما انتهى وخرج من مراكش ألفان اثنان من الموتى كل يوم"**[8].

يتحدث مصدر آخر عن وباء 1006هـ بفاس قائلا:**" كان الطاعون العظيم في هذه السنة، بلغ الموت فيه كل يوم من الألفين إلى الخمسمائة بفاس، مات فيه من الشرفاء والفقهاء وأعيان فاس ما ينيف عن الستة آلاف"**[9].

لقد كان هجوم الوباء في 1597-1598م ماحقا، بلغ به من اتساع الرقعة ومن القوة مبلغا عظيما، لدرجة جعلت الدول المجاورة تتخذ تدابير للحيلولة دون انتقال الوباء إلى أراضيها، وفي هذا السياق أعلم **الكابيدو** (المجلس البلدي لقادس المجتمع في 16 ماي) برسائل مؤرخة في 23 أبريل **"أنه هلك في بلاد البربر ما يزيد عن 450000 من الخلق بسبب الوباء وأن الوضع يزداد ترديا مع كل يوم"**، فقرر المجلس، لوقاية المدينة من كل عدوى قد تلحقها من التجارة أو من العلاقات مع المغرب، أن يمنع كل اتصال لها بثغور بلاد البربر، أي المواقع الأسبانية، ولذلك بادر ابتداء من 24 أبريل إلى منع إحدى السفن من الإبحار إلى بلاد البربر التي عمها الوباء لما قد يكون على المدينة من فادح الأضرار"[10].

ب- الطاعون من خلال شهادات إنجليزية

---

[8] مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بن حادة، مطبعة دار تينمل، مراكش، 1994، ص. 99 .

[9] القادري محمد بن الطيب، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ج 1، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة الأولى،1977م، ص. 69 .

[10] روزنبيرجي برنارد، التريكي حميد، **المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م**، ترجمة عبد الرحيم زحل، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2010، ص. 93 .

كان المغرب خلال عهد السلطان أحمد المنصور يربط علاقات خارجية مع العديد من البلدان، اقتصاديا وسياسيا و دبلوماسيا، وقد احتلت العلاقات مع إنجلترا مكانة بارزة خلال تلك الفترة، مع تصاعد أهمية المبادلات التجارية بين البلدين والتقاء مصالحهما السياسية في العديد من القضايا، وقد أدى ذلك إلى تواجد عدد مهم من الرعايا الانجليز على الأراضي المغربية، غالبيتهم من التجار العاملين بالمغرب، وبعضهم الآخر بمهام دبلوماسية لدى البلاط السعدي، وقد أتاح هذا الوجود لهؤلاء الانجليز تقديم معلومات هامة عن الأوضاع بالمغرب خلال الفترة التي ضرب فيها الطاعون البلاد، وفداحة الخسائر البشرية التي خلفها، وكذلك الإجراءات التي اتخذها المخزن السعدي لمواجهته.

كان الإنجليز المقيمون بالمغرب شاهدين على عظم الكارثة التي ضربت المغرب، لهذا تضمنت رسائلهم و تقاريرهم وصفا تفصيليا دقيقا لما يحدث داخل المغرب، سواء من حيث أعداد الموتى بمختلف المناطق التي يتواجدون بها، أو التأثير الكبير الذي سببه ذلك على حكم الدولة السعدية، وتدابير السلطان أحمد المنصور لتفادي الإصابة بالوباء، رغم بعض التفاوت في الأرقام التي تضمنتها، لكنها تعطي صورة واضحة عن الخسائر الكبيرة التي خلفها انتشار الوباء بالمغرب.

بدأت رسائل الانجليز المقيمين بالمغرب تصل إلى انجلترا منذ سنة 1598م حاملة أخبار الوفيات، ففي ماي 1598م وصلت رسالة تتحدث عن وفيات كثيرة في مناطق عديدة من المغرب، بحيث توفي بمراكش إلى غاية ذلك اليوم أربعة وثلاثون ألف شخص، كما كانت تسري أخبار حينها بأن الملك قد مات، لكنها كانت أخبارا غير مؤكدة[11].

تميزت التقارير الانجليزية بوصفها المفصل لانتشار الوباء بالمغرب، واحتواءها على معطيات وأرقام عديدة تبرز بشكل واضح درجة تفشي العدوى والوفيات الكبيرة بالبلاد، فجاء في رسالة أحد التجار إلى الوزير الانجليزي روبرت سيسل في(20 ماي 1598) وقوع وفيات كثيرة بالمغرب، بلغت 34000 حالة وفاة كل يوم في مراكش وحدها،

[11] De Castries Henry, **Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc**, 1ere série, bibliothèque d'Angleterre, Tome 2, Paris, France, 1918-1925, p. 125.ب ستتم الاشارة إليه S.I.H.M

كما ذكرت أن الإشاعة تسري بأن الشريف قد مات[12]، وهو ما لم يكن صحيحا. ويبدو من تلك الرسائل الفرق الكبير في الخسائر البشرية التي يخلفها الوباء مع ما ذكر في المصادر المغربية، بشكل يوحي بالمبالغة، بحيث أن رقم 34000 وفاة في اليوم يعني أن عدد الوفيات في شهر واحد سيصل إلى 1020000 شخص، وذلك في مراكش وحدها، وهو ما لا يمكن تصديقه نظرا للعدد القليل لسكان المغرب ككل في تلك الفترة، وهو ما يحتم التعامل بحذر مع تلك الأرقام، لكنه لا يلغي العدد المهول للوفيات الناتجة عن الوباء.

جاء في مذكرة عن تجار إنجليز مقيمين في مراكش أنه تم حمل أكثر من مائتين وثلاثين ألف شخص، ليتم دفنهم خارج أبواب مراكش، وبالرغم من ذلك، فإن التجار الانجليز الذين يقيمون بالفندق وسط المدينة لم يصب أحدهم بعدوى الوباء بعد، رغم أن المغاربة حاولوا بطرق عدة نقله إليهم، بوضع الجثث أمام أبواب الفندق و في الشارع، والتي أكلتها الحيوانات و الديدان، زاعمين بأن الوباء لا يمس غيرهم[13].

كما ذكرت نفس المذكرة أنه في إحدى المدن، توفي في ظرف أربعين يوما خمسة آلاف شخص من أصل عشرة آلاف من السكان، وقد نهشت الحيوانات الجثث، لكون الأحياء كانوا غير قادرين على دفن الموتى[14].

أدت تلك الأوضاع إلى حدوث انفلات أمني كبير بالمدن، فقد ذكرت تقارير شهود إنجليز أنه كان هناك اضطراب في البلاد بسبب من العدوى، بحيث لا يمكن لأحد أن يتجول فيها دون أن يتم تجريده من كل شيء. ويضيف يهودي من فاس قائلا: "من بقي في المدينة يموت من الجوع، ومن يخرج منها يموت بالسيف. كل واحد يقضي على التالي"[15].

لم تقتصر تداعيات الوباء على الخسائر البشرية الفادحة، لكنها تعدتها إلى الجوانب السياسية والاقتصادية كذلك، فذكرت مذكرة انجليزية بتاريخ 1 يونيو 1598م أن الوباء في المغرب قد سبب خسائر كبيرة

[12] Ibid, p. 124.
[13] Ibid, p. 126.
[14] SIHM,ANG,T2, op.cit, p. 126.
[15] Rivet D., op.cit,p. 193.

في الأرواح دفعت أحمد المنصور، حفاظا على سلامته، إلى الانتقال للسكن في الخيام التي نصبت في الحقول، كما أشارت إلى أن فوضى كبيرة تعم البلاد بسبب انتشار العدوى، بحيث لا يمكن التنقل فيها دون التعرض للنهب والاعتداء؛ لقد ضعفت قوة الدولة التي كانت تسيطر على البلاد بيد من حديد، لدرجة دفعت المولى أحمد المنصور إلى اللجوء للاستعانة بالأسرى لتعزيز حرسه الخاص[16].

لقد كان لسياسة المنصور تجاه رعاياه دور في تفاقم الأوضاع، فقد كان على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج، يفرض على الرعية أداء ضرائب كثيرة لا يتهاون في جمعها، وزاد الأمر على ما كان عليه في عهد أبيه، وكانت الرعية تشتكي ذلك منه ونالها إجحاف منه ومن عماله، و"كان غير متوقف في الدماء ولا هياب للوقيعة فيها"[17]، لذلك قامت الثورات في مناطق كثيرة وكانت تهدد بتخريب معاصر وحقول السكر، التي تركها العمال والمسيرون خوفا من الثورات وهربا من الوباء، لذلك لم يكن هناك أي استعداد للإنتاج في العام الموالي.

تحدثت أيضا رسالة مؤرخة في 9غشت 1598م عن الوباء الذي يتفشى بالمغرب، متسببا في هلاك 4500 شخص يوميا، وقد أهلك ممثل اسبانيا بالمغرب "**بالطزاربولو**" وخادمه، وأكدت الأخبار عن التجاء المولى أحمد المنصور إلى محلته فرارا من الوباء، وبسبب افتقاره إلى الجنود الكافين لحماية شخصه، أخذ يقترب من مراكش[18].

يبرز الوصف الذي تقدمه هذه الوثائق مدى فداحة الوضع في المغرب على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث انتقلت البلاد في ظرف قصير من كونها دولة قوية عسكريا وماليا وسياسيا، إلى ضعف اضطر معه المولى أحمد المنصور إلى لوضع سلامته في يد أسراه من الأجانب! لقد سعى أعداء الخارج أيضا كذلك إلى انتهاز تلك الأوضاع، ففي غشت 1598م اقترب المنصور من مدينة مراكش لحاجته إلى الجنود ليؤمنوا له الحراسة، لشدة خشيته أن يتعرض المغرب للاجتياح التركي أو الإسباني[19]، كما كان الشريف يرفع معسكره كل

---

[16] SIHM,ANG,T2, ibid,p. 126.

[17] الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق ذ.جعفر الناصري، ذ. محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص. 370.

[18] SIHM, ANG, T2, op.cit, p. 128.

[19] Ibid, p. 128.

عشرة أو اثني عشر يوما، خوفا من الطاعون[20].

في رواية لطاقم سفينة إنجليزية في 4 أكتوبر 1598م أنهم التقوا بأربعة سفن، واحدة من أمستردام، وأخرى من إنجلترا واثنتان فرنسيتان، قادمة من المغرب، حكوا عن الطاعون الرهيب بذلك البلد، الذي توفي فيه في مدة قصيرة مائتان وخمسون ألف شخص[21].

لقد لاذ السلطان بجيوشه هربا من الوباء، كأنما يريد أن يحمل عليه، لكن لم تكن له قدرة على فعل شيء أمام هذا العدو غير الفرار من وجهه، وباتت الاتصالات بالخارج محدودة جدا، وداخل السلطات المحلية الروع والاضطراب والعجز بكثرة ما هلك واعتل من أفرادها، وشل جهاز الدولة وضعف الجيش عمودها الفقري، وفي هذا كله تفسير لاشتداد أعمال العنف، بحيث لم يعد لأي وازع، ولو كان أخلاقيا، أن يوقفها أو يخفف منها، نظرا للبلبلة التي عمت النفوس. إن قوة السلطان الذي كان يسوس البلاد قد نالها ضعف شديد حتى اضطر إلى الاستعانة بالأسرى (الأوربيين) لتعزيز حرسه الشخصي، ووقع التمرد في أماكن شتى، وهدد بتخريب مصانع السكر و نهبها، ما اضطر "المعلمية" والعمال إلى الهرب خوفا من المتمردين ومن الوباء الذي ظهر في بعض تلك المصانع، وتركوا كل شيء عرضة للنهب[22].

وفي ذلك ما يفسر القرار الذي اتخذه المنصور بالابتعاد عن مراكش عاصمة ملكه، التي يبدو أن معاناتها من هذا الوباء كانت شديدة، ويبدو أن هذا الوباء انتقل من الشمال إلى الجنوب ثم استوطن هناك وطال مقامه[23].

من المحتمل أن يكون قد هلك ثلث السكان إلى نصفهم في بعض الأماكن، خاصة منها المدن. وفي جميع الأحوال فقد كان الوباء من الشراسة بحيث أدى إلى قلب الموازين.

استمر مولاي أحمد خارج المدينة في خيامه بسبب الوباء، لكنه بدأ يقترب من المدينة أكثر، لحاجته للجنود

[20] Ibid, p. 142.
[21] Ibid, p. 125, n. 2.

[22] روزنبيرجي.ب، مرجع سابق، ص. 98.
[23] روزنبيرجي.ب، مرجع سابق ، ص. 96.

من أجل حماية شخصه، فهو يخشى كثيرا التعرض لغزو تركي، ويخشى أيضا الغزو الاسباني[24].

ج- تداعيات الطاعون على الأوضاع السياسية:

لم تقتصر التداعيات الخطيرة للوباء على الأوضاع الداخلية للمغرب فقط، بل أثرت كذلك بشكل كبير على وضعية المغرب بين قوى المنطقة، وعلى علاقاته التجارية مع الدول الأخرى، وقد سبق الحديث عن قرار مدينة قادس إيقاف التعامل مع الثغور المغربية خوفا من انتقال العدوى إلى الأراضي الأسبانية، بالإضافة إلى انتشار الأخبار عن هجوم محتمل من أتراك الجزائر أو من اسبانيا لاحتلال المغرب، مستغلين حالة الضعف الكبير الذي أصاب الدولة السعدية.

أما بخصوص الجانب الانجليزي، الذي كان يعتبر حليفا للمغرب، فقد تلقت العلاقات التجارية ضربة قوية نتيجة للأوضاع المتدهورة بالمغرب، سواء على المستوى الأمني أو الإنتاجي، فقد تعرضت محاصيل قصب السكر للإتلاف، وكثير من معاصر ومصانع السكر للتخريب من طرف الثوار، مما حرم التجار من البضاعة الرئيسية التي يرغبون فيها لحمولة العودة، كما لم يعد بإمكانهم الإقامة أو التحرك في البلاد بشكل سهل، سواء بسبب الوباء أو حالة الفوضى السائدة، ليصل الأمر إلى تفضيل التجار عدم النزول إلى اليابسة تماما، خاصة بعد الحالة المتردية التي أصبحت عليها الموانئ المغربية، التي صارت مهجورة، وقد أشارت مذكرة إنجليزية سنة 1598م إلى وجود سفن إنجليزية في موانئ المغرب، والتي ستعود أدراجها دون حمولة للعودة، بسبب تلك الاضطرابات[25].

وهي الصورة التي ترسمها رسالة الملكة إليزابيث إلى المولى أحمد المنصور في 14 يونيو 1599م:"**...عندما وصل (حامل الرسالة)إلى الساحل المغربي، وشاهد الموانئ المهجورة بتلك الطريقة، والوفيات الكثيرة التي عرفتها ممالككم، والخطر الكبير الذي تعيشه الطرقات، ومعرفته بترككم لقصركم بمراكش، بسبب الوباء، و انتقالكم للإقامة بالخيام المنصوبة في الحقول، وتغييركم لمكان الإقامة من فترة لأخرى، من أجل المحافظة**

[24] SIHM,ANG,T2, op.cit,p. 130.
[25] Ibidem.

على سلامتكم، عاد دون إتمام مهمته"[26].

لا تتحدث المصادر عن وفيات سنتي 1599 و1600م، ويبدو أن الوباء قد توقف عن حصد الأرواح، أو على الأقل خفت حدته بشكل كبير، ولم يعد يمنع العلاقات والتواصل بين الناس، كما تؤكد فقرة من هذه الرسالة، والتي تقول:"في هذا الخضم من الوفيات لبث السلطان مولاي أحمد في منأى عن الخلق يلوذ بخيامه، لكنه أخذ الآن في الاقتراب من مراكش"، ولا شك أن ذلك إنما كان بسبب تراجع حدة الطاعون في هذه المدينة، فما عاد يأتي الحديث بعد ذلك التاريخ في أي وثيقة عن الوباء ولا عن وفيات فيه حتى العام 1601م[27].

خلال تلك الأزمة، زاد الأوضاع في البلاد تعقيدا الكشف عن مؤامرة بطلها نائب ولي العهد محمد الشيخ المامون، ويدعى القايد مصطفى، وهو إسباني المولد قبل أن يصبح مغربيا، وكان يحظى بمكانة كبيرة لدى الشيخ المامون، فقد وعد هذا القايد بتسليم مدينة العرائش إلى ملك إسبانيا، بالإضافة إلى قيامه بتحريض ولي العهد على قتل إخوته. لكل تلك الأسباب، أمر المولى أحمد ابنه بقطع رأس القايد مصطفى، ورغم عدم تحمسه لتنفيذ ذلك الأمر، قام الشيخ المامون باستدعاء قايده إلى فاس، ويقوم بتنفيذ أمر والده بقطع رأسه[28].

لقد كانت البلاد في حالة من الإرهاق الشديد، فقد فقدت جزء مهما من ساكنتها، وضعفت سلطة الدولة فيها بشكل كبير، وكان يلزم المغرب سنوات طويلة من الاستقرار من أجل مداواة تلك الخسائر والعودة إلى الوضعية التي كانت عليها البلاد قبل هذه الأزمة، لكن التحركات المريبة للشيخ المامون لم تترك للسلطان مجالا لذلك، فكان لزاما عليه التحرك بجيشه نحو فاس بهدف تأديبه، والسيطرة على تصرفاته الطائشة التي كانت تهدد بجر البلاد إلى صراع بين السلطان وابنه، لكن أحمد المنصور استطاع الوصول إلى فاس وقام بزج ولي عهده في سجن مكناس عقابا على تصرفاته وتمرده.

[26] SIHM,ANG,T2,op,cit,p. 140.

[27] روزنبيرجي.ب، مرجع سابق، ص. 95.

[28] SIHM,ANG,T2, ibid,p. 130.

لكن البلاد لم تهنأ بذلك الأمر، ولا بتراجع الوباء، مدة طويلة، ففي العام 1602م، ويحتمل أن يكون مع مبتدأ فصل الربيع، لكن في فصل الصيف بكل تأكيد، تفشى الوباء في سوس، وعاد أبو فارس، وهو يومها خليفة السلطان على هذا الإقليم، إلى مراكش[29]، لكنه لم يلبث أن ترك المدينة عملا بتعليمات والده، فقد كتب إليه المنصور من فاس حول ظهور الوباء بمراكش:

"...وإلى هذا أسعدكم الله أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد ويبقى في القصبة وصيفنا مسعود والقائد محمد بن موسى بن أبي بكر واترك ماية رام تتقوى بها من رماتكم من أصحاب السقيف وتوكلوا على الله وتخرجوا بالسلامة ثم لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرحلية والتغلب بها بل لا تزيدوا إذا خرجتم على المقام أكثر من يومين ثم اطووا المراحل إلى أن تنزلوا سلا وتدخلوا بها دخول هناء وعافية إن شاء الله تعالى وهناك يكون لقاؤنا بكم لقاء يمن وسعادة إن شاء الله ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله فالزموه إذا استشعرتم منه بحرارة وتخوفتموها..."[30].

كان المنصور بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع إلى مراكش، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص إلى أن دخلت سنة اثنتي عشر وألف(1603م)، فانتشر الوباء في بلاد الغرب أيضا فكان مصاب المنصور به[31].

"...كان ابتداء مرض المنصور رحمه الله بمحلته بظهر الزاوية موضع بظاهر فاس الجديد قريب منه يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع النبوي الأنور المبارك من عام اثني عشر وألف فدخل في محلته راجعا إلى فاس الجديد والتزم الفراش إلى يوم الاثنين الموالي لتاريخه فتوفي رحمه الله، ودفن يوم الاثنين عند صلاة العصر و كانت

[29] روزنبيرجي.ب، مرجع سابق، ص. 101 .
[30] الأفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 1998،ص. 184.
[31] روزنبيرجي.ب، مرجع سابق، ص. 103.

وفاته بالوباء..."[32].

لقد أصيب المولى أحمد المنصور بعدوى الوباء الذي عاد ليضرب بقوة في المغرب، وكان ذلك سببا في وفاته بعد فترة قصيرة، في 24 غشت 1603م/1012هـ، عندما كان يهم بالعودة إلى عاصمة حكمه مراكش[33]، كما أهلك أكثر من نصف مليون شخص، وكانت تداعياته الثانوية غير قابلة للقياس. وقد قلص أعداد الجنود بشكل كبير وخفض كثيرا اليد العاملة في معاصر السكر، والتي لم تتعاف من ذلك بعدها أبدا[34]، لتنتهي بذلك أزهى فترات الدولة السعدية بالمغرب.

خلاصة:

شهد المغرب عبر تاريخه الطويل العديد من الأوبئة التي تركت بصمتها على بنيته البشرية والاقتصادية والسياسية، وقد كان للطاعون الذي اجتاح المغرب أواخر عهد أحمد المنصور نتائج عميقة على بنية الدولة السعدية، في جوانبها البشرية والاقتصادية والسياسية، وخلق تصدعات كبيرة لم تتمكن البلاد من تجاوزها خلال بقية فترة الحكم السعدي بالمغرب، كما دقّ، إلى جانب أسباب أخرى، آخر المسامير في نعش صناعة السكر المزدهرة في العهد السعدي، وزعزع أسس القوة العسكرية للدولة، قبل أن يجهز على أعظم سلاطينها، تاركا البلاد عرضة للصراعات بين أبنائه حول العرش، وما صاحب ذلك من تراجع لمكانتها بين القوى المنافسة في المنطقة.

المصادروالمراجع العربية

[32] الأفراني، مصدر سابق، ص. 279.
[33] الأفراني، مصدر سابق، ص. 279.
[34] Rivet.D, op.cit, p. 192.

- الأفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 1998
- ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، تحقيق عبد الله الدرويش، الطبعة الأولى، دار يعرب، دمشق، 2004
- البزاز محمد أمين، الطاعون، **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، مطابع سلا، المغرب، 1989
- التمنارتي عبد الرحمان، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2،2007
- روزنبيرجي برنارد، التريكي حميد، **المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م**، ترجمة عبد الرحيم زحل، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2010
- القادري محمد بن الطيب، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ج 1، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة الأولى،1977م
- مؤرخ مجهول، **تاريخ الدوالة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بن حادة، مطبعة دار تينمل، مراكش، 1994
- الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق ذ.جعفر الناصري، ذ. محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997
- الونشريسي أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**،ج 2، خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،1981

- De Castries Henry, **Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc**, 1ere série, bibliothèque d'Angleterre, Tome 2, Paris, France, 1918-1925
- Rivet Daniel, **Histoire du Maroc de Moulay Idris à Mohammed VI**, Fayard, France, 2012